بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[الرَّعد : الآية ٤]

انتهينا فى مقالنا الماضى من الكلام على فرائض الإسلام : فرائض العبادات وفرائض الواجبات التى لابد منها لبقاء أمة الإسلام بين أمم الصدارة والقيادة على هذه الأرض ، لأن الإسلام قو وعزة وفتح ونور وريادة وقيادة .

واليوم نتكلم عن واحدة من خاصتين يتميز بهما الإسلام . هما العلم ، ثم العمل ، وسنتحدث عنه فى فصلنا التالى إن شاء الله .

والآيات التى جعلناها بداية لكلامنا عن الإسلام والعلم أتيت بها من سورة الرعد ، وأنت إذا قرأت السورة ملياً وجدت أنك تستطيع أن تسميها سورة العلم

أو سورة العلوم على اعتبار أننا اصطلحنا فى يومنا هذا على أن لفظ العلوم بالجمع يراد به علوم المعاش من فيزياء وكيمياء وزراعة وطب وصيدلة وكل ما ينفع الناس فى دنياهم ، ومن الواضح أن صلاح دنيا الإنسان مدخل إلى صلاح دنيا الإنسان مدخل إلى صلاح أخراه كما رأينا عندما تكلمنا عن قوله تعالى فى سورة الزمر : ﴿ وَقَالُوا الحَمْدُ لِلّهِ الّذِي صَدَقَنَا وَعدهُ وَأورثَنَا الأرضَ نتبوَا مِن الجَنةِ حَيثُ نَشَاءُ فنِعم أجرُ العَاملِينَ ﴾ فهنا يرتبط الوجود الأرضى بالوجود الفردوسى ويتلازمان ويصبحان شيئاً واحداً ، وعبارة (فنعم أجر العاملين) فى آخر الآية تدل على أن الذين أورثهم الله الأرض عملوا فيها أحسن العمل فتبوءوا بعد ذلك من الجنة حيث يشاءون .

وفى الناس من يقولون إن المراد بالعمل هنا هو العبادات ، وهذا معقول ومقبول ، ولكن الله سبحانه خفف أمر العبادات المفروضة فى الإسلام ، فجعلها لا تستغرق من وقت الإنسان إلا أقله ، وإذا أنت أخذت الصلاة مثالاً وجدت أن كل صلوات اليوم المفروضة لا تستغرق أكثر من نصف ساعة فى مجموعها فماذا تفعل ببقية ساعات النهار والليل ؟

الذى تفعله هو النظر فى الكون على نور القرآن ، فتجد أن الله سبحانه قد وضع لك فى هذا القرآن ما هو كفيل بأن يحرك ذهنك إلى العمل ، ويفتح أمامك أبواب النشاط ، ويدفعك إلى التفكير للكشف والوصول إلى ما تتضمنه الأرض من منابع الخير ومصادر القوة ، والآيات التى ذكرناها إنما أنزلها الله سبحانه لكى يحرك بها أذهاننا فى طريق العلوم وأسرارها حتى تتفتح أمامنا أبواب الكشوف ، وكلما وصلنا إلى كشف انفتحت به أمامنا سبل العمل والرزق ، وإلا فلماذا يلفت الحق سبحانه أنظارنا إلى هذه الظاهرة الفريدة ، ظاهرة وجود قطع من الأرض متشابهة وغير متشابهة تنبت صنوفا من الثمر مختلفاً أنواعه كالأعناب وصنوف الزروع والنخيل . وقد تتجاور شجرتان : تين وزيتون ، والتين حلو ، والزيتون

مر ، وهما يخرجان من أرض واحدة بأمر الله ، ونحن فى هذه الحالة مطالبون بأن نفتح الأرض ونقلبها وندرس النوى والحب لكى نصل إلى ما يأذن الله لنا فى علمه من الحقائق التى تعيننا على تجويد الزرع والإكثار من الثمر وحمايته وحماية الأرض وهنا علوم كثيرة : فيزياء وكيمياء وأحياء ، ومن العلوم تتفرع علوم ، وكل علم يأتينا بخير كثير ، وبالخير الكثير تنمو ثرواتنا وتقوى وتعز بلادنا ، وكل هذا يأتينا من العلم ، ولهذا فإن الله سبحانه يختم الآية بقوله : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ أى يستخدمون عقولهم ، واستخدام العقل هو أساس القوة فى هذه الأرض ، وخلال القرن الخامس عشر الميلادى وما تلاه ، تعلم أهل الغرب كيف يستخدمون العقل للوصول إلى أسرار القوة ، وأنت عندما تقرأ ما كتبه إبرازموس وجاليليو جاليلى وميكلانجلو وفرانسيس بيكون وجون لوك وديفيد هيوم وآدم سميث وجون ستيورات ميل تشعر أنك أمام رجال تنبهوا إلى قوة العقل وقدرته على الكشف ، وهذا هو الحال مع الموسوعيين الفرنسيين من أمثال ديدرو ودالامبير الذين قاما على تحرير الموسوعة الفرنسية فيما بين سنتى ١٧٧٥ و ١٧٨٢ م ، وتلك الموسوعة الفرنسية حافلة بكل ما كان يعتبر فى ذلك الزمان جديداً ، ولكنها اليوم أثر تاريخى ، أما أهميتها الكبرى فهى أنها كانت من الميادين الكبرى التى تعلمت أوروبا فيها كيف تفكر أو كيف « تعقل » إذا استعملنا مصطلح القرآن ، وهذا العقل قاد أوروبا إلى ما أذهل عالماً مثل عبد الرحمن الجبرتى المصرى الذى بهرته مكتشفات الفرنسيين ومخترعاتهم التى عرضوها عليه وعلى غيره من علماء مصر فى عصره ، فقال : وهذه أمور لا تفهمها عقول أمثالنا ، مع أنها كلها كانت مخترعات بسيطة ناتجة عن تجارب بدائية فى الفيزياء والكيمياء والميكانيكا ، ولو أننا قرأنا القرآن قراءة تدبر وذكرنا أنه خير دليل للمسلم للسعادة فى الدنيا والآخرة ، لو أننا فعلنا ذلك لما سبقنا من الأمم سابق فى ميادين العلوم والمعارف .

وفى سورة الرعد هذه من الاستحثاث على التفكير والتجريب فى ميادين العلوم ما كان كفيلاً بأن يجعلنا رواد العلوم فى تاريخ البشر ، واقرأ قول الحق سبحانه فى هذه السورة : ﴿ **وهو الذى مَدَّ الأرضَ وجعل فِيها رواسِىَ وأنهاراً ومِن كلِ الثمَراتِ جَعل فِيها زوجينِ اثنينِ . يُغشى الليلَ النهارَ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يَتفكرون** ﴾ [الرعد ١٣/ ٣] .

ثم تلا ذلك الآيات التى ذكرناها آنفاً ، وهنا يقول الحق سبحانه ، إن هذه آيات لقوم يتفكرون ، وهناك يقول إنها آيات لقوم يعقلون ، والفكر هو وظيفة العقل ، ويعنى ذلك أننا عندما نقرأ أمثال هذه الآيات فإن علينا أن نتعقل ونفكر لكى نتنبه إلى ما فيها من إشارات إلى أسرار الكون ، لأن الله أعطانا العقل لنفكر به ، والفكر ميزة الإنسان الكبرى وسلاحه الذى يمكن له من حل مشاكله ومواجهة معضلات الحياة .

فأنت مثلاً إذا قرأت هذه الآيات وسألت نفسك : ما الذى يجعل شجرة التين تخرج ثمراً حلواً ، فى حين جارتها شجرة الزيتون تخرج ثمراً مرًّا ، مع أن الأرض واحدة والماء واحد ؟ فهنا يجيب ذهنك : إنها البذرة أو الشتلة ، فلننظر فى أمر البذرة ومم تتكون . هنا يبدأ التحليل والبحث ، وهذا هو ما فعله واحد من أكابر النباتين فى تاريخنا العلمى وهو ابن العوام الأشبيلى . فقد كان هذا الرجل عالماً نباتياً بارعاً ، أفنى عمره كله يفحص الأرض والتربة ويحللها على قدر ما مكنته الظروف التى كان يعيش فيها فى أشبيلية فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى . وعندما تقرأ كتاب النبات من تأليفه تحس بالاحترام لهذا العقل العلمى المرتب المنظم الذى دفع صاحبه إلى تحليل التربة ، فكان يأخذ بضعة من تراب الأرض ويضعها فى الماء ويحركها ليرى ماذا يذوب فى الماء منها ، ويقول : هذه تربة حلوة وتلك تربة مالحة . وهذه تصلح لزراعة كذا وتلك لكذا ، وفى كتابه من التوجيهات للزراع مالا يقل فى شىء عما تقرأ فى كتب

الزراعة اليوم .

قلت لك إن سورة الرعد يمكن أن تسمى سورة العلم أو العلوم لكثرة ما فيها من الآيات التى تحرك ذهن قارئها إلى التفكير فى الخلق وأسرار الله فيه ، وكلها أسرار لا تلبث أن تنكشف عن حقائق إذا نحن ملكناها زدنا قوة ، واقرأ قوله تعالى فى نفس السورة :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد ١٣/ ١٧] .

فهنا نجد مثالاً من أسلوب القرآن فى فتح أذهاننا على أسرار القوة فى خلق الله ، هنا نرى السيل الرابى المتدفق الذى يحمل كل شىء فى طريقه ، فهو إذن قوة يمكن استخدامها فى توليد الطاقة بدليل ذكر الله بعد ذلك لما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع ، فكأن الله يقول لك : فكر فى العلاقة بين قوة الماء المتدفق وقوة النار ، وهذه الإشارة تكفى لكى تدفع الذهن إلى التفكير فى القوى المحركة للأشياء فى هذه الأرض ، وهنا أذكرك ببدايات الكشوف العلمية الكبرى كالكهرباء مثلاً ، فإن بنيامين فرانكلين الأمريكى كان من هواة تطيير طائرات الورق التى يطلقها الصبيان فى الهواء ويمسكون بها بخيط طويل ويجرون بها لكى تزداد فى الهواء ارتفاعاً ، ولكن فرانكلين كان يصنع طائرات ورقية كبيرة يمسكها بخيط من السلك الرفيع ، فكان إذا اكفهرت السماء وتلبد الجو أحس بتيار كهربائى خفيف فى أصابعه فعلم أنها كهرباء الجو التى تصل أحياناً إلى قوة الصواعق ، ألستم ترى إلى إشارة الله التى ذكرناها إلى إنشاء الله سبحانه للسحاب وتسبيح الرعد بحمده . . ألست ترى فى هذا كله ما كان يمكن لعالم

مسلم من الاهتداء إلى سر الكهرباء والتفكير فى تطويعها لخدمة الإنسان ؟ وهذا هو الـذى فعله بنيامين فرانكلين ، فقـد انتقل بعد ذلك إلى إنشاء الكهـرباء من عجلتين تدوران فى اتجاهين متعـاكسين ، وتوصل بـالفعل إلى الحصـول على تيار كهـربائى قصير المدى ، ثم جـاء غيره من بعده فبـدأ من حيث انتهى ، واتصل البحث والكشف بعد ذلك حتى وصلنا إلى ما ترى من الدور العظيم الذى تقوم به الكهرباء فى حياتنا اليوم .

ذلك أن الله سبحانه أعطى الإنسان العقل لكى يستخـدمه فى حل مشاكله فى حياتـه على الأرض ، والعقل قوة كبرى ذات طـاقات مختلفـة ، فالعقل يحفظ وأنت عندما تـوجه قوة عقلك إلى الحفظ والاستظهار فأنت تقلـل من قدرته على الحركـة والاستنتاج والاستكشـاف ، لأن العقل يتحـول عند ذلك إلى عضـلات ضخمة كما يحدث لجسـد الذى يـدرب جسده على رفع الأثقـال ، ومن هنا فإن العقل الحافظ غير قادر على الحركة السريعة النشيطـة التى هى ميزة العقل المفكر والمبتكر ، وتـدريب الذهن على الحركة السريعـة المبتكرة هو خير استخـدامات الفكر ، وهذا هو الذى ينبغى أن تفعله المدرسة ، ولهذا فإننا نقع فى خطأ جسيم عندمـا ندفع أولادنـا إلى استظهار الكتب والمذكـرات ليجتازوا الامتحـانات وهم يجتازونها فعلاً ولكن أذهانهم تثقل وتجمد وتصبح عاجزة عن الابتكار .

ومذهب القـرآن الكريم فى حث الذهن على التفكير والتفطن يأخـذ طريق الحركة السريعـة ، فهو كما رأيت فى آيـات سورة الرعـد يدعـونا إلى العقل أى إلى استخدام العقل والتفكير فى شئون الكون لنصل إلى أسرار القوة فى خلق الله ، وله فى ذلك طرائق جميلة ، إذا نحن تنبهنا إليها زدنا إيماناً بهذا القرآن العظيم ، وتأمل قوله تعالى فى سورة فاطر :

﴿ أَلَم تَر أَن الله أنـزلَ مِن السَّمَاءِ مـاء فاخرجنَـا بهِ ثمـراتٍ مختلِفاً

ألوانُها ومن الجبال جُدد بيضٌ وحُمرٌ مُختلف ألوانُها وغرابيبُ سُودٌ. ومن النَّاس والدَّواب والأنعام مُختلف ألوانُه كذلك إنما يَخشى الله مِن عِبادِه العُلماء إن الله عزيز غفور ﴾ [فاطر ٣٥/ ٢٨ ـ ٢٩] .

فهنا فى هذه الآية ذكر للكثير من إبداعات الله فى خلقه ، هنا ذكر للمطر الذى يهبط على الأرض ويخرج الثمرات ذات الألوان المختلفة ، وهنا ذكر لألوان الجبال ما بين أبيض وأحمر داكن وأسود ، وهذه الألوان تتأتى من عروق المعادن وأكاسيدها ومركباتها ، وهنا ذكر لعظم خلق الله من أصناف البشر والدواب والأنعام ، وبعد ذلك نقرأ : **﴿ إنما يَخشى الله مِن عِبادِه العُلماء ﴾** وتسأل لماذا جاء ذكر العلماء هنا ؟ لقد سبق أن قلت أن لا شىء فى القرآن يأتى مصادفة أو دون تقدير دقيق ، لأن القرآن كلام الله ، وكل شىء فيه بحساب ، ومادام هذا هكذا فلابد أن الله أتى بذكر العلماء هنا وقرر أنهم هم الذين يخشون الله لكى ينبه أهل الفكر إلى تأمل خلق الله واستخراج الأسرار منه ، فإذا وقفوا عليها زادت خشيتهم لله لما يرون من بديع خلقه ، فهنا توجيه لأهل الفكر إلى النظر والبحث ليكونوا علماء ، والعلماء هم أعرف لناس بجلال خلق الله ، ولهذا فهم أشد الناس خشية له . وكان ينبغى أن تكون هذه الآية لافتة لأذهان أهل العلم للاتجاه نحو البحث فى الجبال مثلاً سعياً وراء استكشاف المعادن واستخراجها من الجبال وتخليصها من مركباتها ، والمعادن كما نعرف أساس الصناعات العظيمة ، والمسألة كانت يجىء شيئاً فشيئاً ، وكل صاحب علم يكتشف شيئاً ، ثم تجىء غيره ويضيف شيئاً ، وهكذا يعو صرح العلم وتتوافر للأمة أسباب القوة ، وفى تاريخنا العلمى كثيرون نظروا وبحثوا وكشفوا ، ولكن العلم تراكم ، وأبو الريحان البيرونى الذى وصل إلى نظريات علمية بعيدة يقف وحده فى تاريخنا الفكرى ، ولو أنه وجد من يأخذ ما وصل إليه ويدرسه ويجرى التجارب للتأكد منه ثم يزيد عليه ما استطاع لكان حالنا اليوم غير الحال ، لأن الذين وصلوا إلى أسرار العلوم

وقواها من أهل الغرب ووصلوا ببلادهم إلى الصدارة لا يتميزون عنا فى شىء ، بل نحن ملومون لأن الله أعطانا هذا القرآن العظيم وفيه مفاتيح القوة كلها ، وكنا حريين أن نصل بها إلى قيادة الدنيا لو أننا قدرناه حق قدره ، وعرفنا كيف نفيد منه ونصل عن طريقه إلى قيادة أممنا فى معارج القوة والخير .

فالقرآن الكريم إذن مفتاح العلوم لأنه مفتاح العقول ، وعندما نقرأ قول الحق سبحانه فى سورة يونس : ﴿ **قل انظُروا مَاذا فِي السَّمَوَاتِ والأرضِ وما تُغنِي الآياتُ والنُذُر عن قومٍ لا يُؤمنونَ** ﴾ [يونس ١٠/ ١٠١] .

يتقرر فى أذهاننا أن الإسلام دين العلم ، فهنا ربط واضح بين الإيمان والعلم ، فإذا لم ينظر الإنسان فى السماوات والأرض ويتفكر فى روائع خلق الله وما تضمه من حقائق علمية فلن تغنى عنه الآيات والنذر ، ولن يصل إلى الإيمان الصحيح قط ، لأنك إنما تؤمن بالله لما ترى من بدائع صنعه . ولن تصل إلى معرفة بدائع الخلق إلا إذا تأملت وفكرت لتتفتح أمامك مغاليق أسرار القوة فى ذلك الكون الذى تعيش فيه ، حقاً إن القلب المؤمن مؤمن ، ولكننا فى أمة الإسلام فى حاجة إلى أهل العلوم الذين يتأملون ويفكرون ويستكشفون لكى يصلوا بأمة الإسلام إلى درجات القوة والرفعة ، واقرأ معى قوله تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ **أَوَ لَمْ ينظروا فِي ملكوت السَّموات والأرضِ وما خَلق الله مِن شيءٍ وأَن عسَى أن يكُون قدِ اقترَبَ أجلُهم فبِأى حديث بعدهُ يؤمنون** ﴾ [الأعراف ٧/ ١٨٥] .

أجل . فإن الإنسان يكفيه أن يتأمل فى ملك السماوات والأرض وما خلق الله فيهما من عجائب المخلوقات لكى يؤمن بالقرآن ورب القرآن ، فإذا آمن ودخل فى أمة الإيمان كان عليه بعد ذلك أن يمضى مفكراً متدبراً فى بدائع خلق

الله لكى يزداد إيماناً ، وهو فى أثناء ذلك يكتشف ويضيف بعلمه إلى قوة عالم الإسلام ، فيعز أهل عالم الإسلام بالعلم ، وهذه العزة تجتذب الناس إلى دين الله لأن الناس يحبون القوة والعزة ، وكان رسول الله ﷺ يعلم ذلك ، وطوال حياته لم يدخل وسعاً فى تقوية أمة الإسلام ، واقرأ قول الحق سبحانه فى سورة الروم :

﴿ أوَ لَمْ يتفكرُوا فى أنفُسهم ما خَلق الله السَّمَوات والأرضَ وما بينهُما إلا بالحقِ وأجلٍ مُسمى وإنَّ كثيراً من الناسِ بلِقاء ربِهِم لكافِرون ﴾ .

[الروم ٣٠/ ٨].

وهنا يلفت الله أنظارنا إلى عجائب خلق أنفسنا ، لأننا نادراً ما نفكر فيها ، ولابد لنا من أن نفكر فيها ، ثم ننظر فى الكون لنرى أنه سبحانه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، أى بغاية الدقة ، ثم إن هذا الخلق كله مخلوق بأجل مسمى أى بحساب زمنى مقرر ، فلكل شىء أجله وميعاده ، وإذا لم يتفطن الإنسان إلى جلال ذلك كله لم يشعر بروعة لقاء الإنسان لربه يوم الحساب .

ولست أريد أن أقول بذلك إن القرآن الكريم كتاب علم أو علوم وحسب ، لأن القرآن أعظم من ذلك وأرحب مدى ، فهو كتاب كل شىء فى هذا الوجود ، ولكنى أريد أن أقول إن الاكتشاف والاختراع ، لأن كل أسرار القوة مودعة فيما حولنا من خلق الله ، وعلينا أن نسعى إلى الوصول إليها وتملك أسرارها لأن أمة الإسلام لن تكون جديرة بالإسلام إلا إذا كانت قوية عزيزة ، لا يغلبها من البشر غالب بفضل قوتها وتماسكها واستحواذها على أسرار القوة .

ولله سبحانه أساليب شتى فى تحريك الأذهان لا يتفطن إليها إلا من قرأ القرآن قراءة تفكير وتأمل عميق ، فإن البارىء سبحانه يأتى فى القرآن بآيات تشير كلها إلى عجائب الخلق وهى ساكنة لا تتحرك مثل قوله تعالى :

﴿ أَفَلَا ينظُرون إِلى الإبلِ كيف خُلقت وإلى السماء كَيف رفعتْ . وإلى الجِبالِ كَيف نُصبَتْ . وإلى الأرضِ كيف سُطحَتْ . فَذكِر إنما أنت مُذكرٌ . لست عليهم بمُصَيْطر ﴾ [الغاشية ٨٨/ ١٧/ ٢٢] .

فهذه كلها معجزات كونية يدعونا الله سبحانه إلى أن نتأمل عجائبها وهى ساكنة ، نعم إنها كلها تتحرك ولكننا مدعوون هنا إلى أن تتأملها ونتفكر فى عجائبها وهى ساكنة أمام أبصارنا ، ويذكر الله هنا الجمل وهو عجيبة أى عجيبة فقد ارتبط الجمل بالعربى حتى إن أحد لا يشك فى أن جزيرة العرب هى موطن الجمال ، وما أبعد هذا عن الحقيقة ، فإن مهد الجمل كان فى جبال الأنديز فى أمريكا الجنوبية فى نواحى جمهورية بيرو ، هنا نجد إلى يومنا هذا توأمى الجمل وهما اللاما والألباكا ، واللاما على وجه الخصوص جمل بدون سنام ، وهى مع الالباكا تعيش على سفوح جبال الأنديز وفى الهضاب العالية منها ، وهناك عثر العلماء على أول ما عثروا عليه من آثار الجمال الأولى ، وكانت الجمال هناك صغيرة فى حجم اللاما (ينطق الناس اسمها هناك الليـاما) والالباكا وهى حيوان يشبهها ولكن فروه غزير الشعر ، والجمل بطبعه حيوان نفور أى يميل بطبعه إلى الانفراد بنفسه ، وكان شديد الخوف إذ لا سلاح له ، فارتفع بنفسه فى أعالى جبال الأنديز ، ثم اتجه إلى الشمال فى رحلة طويلة قضى فيها ملايين السنين ، ولكن الباحثين عثروا على حفائره على طول طريقه ، فقد انتهى من أمريكا الجنوبية ودخل أمريكا الوسطى وقطعها حتى وصل إلى صحراء نيفادا فى الولايات المتحدة ، وكان ذلك قبل ملايين من السنين ، وهناك فى الصحراء تبحبح الجمل واطمأن ، فقد وجد البيئة الآمنة التى كان يطلبها : صحراء واسعة لا يعمرها من كواسر الحيوانات أو من الناس أحد ، فقضى ألوف السنين ظهر فيها خفه الغليظ الذى يمكنه من التوغل داخل رمال الصحراء ، وهناك أيضاً تطورت معدته ونشأ له شيئاً فشيئاً جهاز اختزان الماء ، والجمل لا يختزن الماء فى

معدته ماء ، بل هو يتحول إذا شربه إلى مادة هلامية تختزن فى شرايينه فى كل جسده ، وهو إذا احتاج إلى الماء استخرج منها ما هو بحاجة إليه ، أما ما يقال من أن من يريد أن يقطع أرضا صحراوية أخذ جمالاً وسقاها الماء حتى تمتلىء أجوافها ثم دخل بها الصحراء ، فإذا احتاج إلى الماء ذبحها ليشرب الماء الذى فى بطونها فغير صحيح ، وخالد بن الوليد لم يقطع بجيشه صحراء الشام الواسعة بعرضها لأن قطعها كان يحتاج إلى أسبوعين ، وإنما هو سار من عين التمر إلى الشمال محاذيا نهر الفرات حتى وصل إلى أضيق ساحة من ساحات الصحراء ، فقطعها ثم انحدر إلى الجنوب حتى وصل إلى بصرى .

ونعود إلى الجمل فنقول إنه عاد يسير إلى الشمال حتى وصل ألاسكا ، ومن هناك عبر إلى آسيا ـ سيبريا ـ ثم أخذ ينحدر إلى الجنوب حتى وصل صحراء جوبى شمالى الصين ، وهناك فى عمق الصحراء استكمل تكوينه وقضى مئات الألوف من السنين ، وكبر حجمه ، ونشأ منه صنف ذو سنامين ، وهى الجمال التى يسميها العرب بالبختية ، ونما حجمه ، وهناك استأنسه الناس واستخدموه ، وهاجرت جماعة من ذات السنام الواحد إلى شمال الهند ، ثم إلى جنوب العراق ، ووصلت إلى أبواب جزيرة العرب ، وهناك استأنس الناس الجمل ، ودخلوا به الصحراء أيام العرب العاربة ، وبالجمل استطلع الإنسان أن يسكن الصحراء ويعيش فيها ، لأن الجمل إذا وجد الماء شرب دفعة واحدة ما يقرب من مائة وخمسين لتراً من الماء ، وهو لهذا يستطيع الصبر بدون ماء فوق السبعة عشر يوماً ، وهو حيوان قوى صبور يستطيع أن يسير أياما طويلة وينام وهو سائر على حداء الحادى ، وكل ما فيه مفيد : وبره صوف ناعم كالحرير ، ولحمه طرى ، ولبنه وفير . وهو أنيس حسن العشرة ، ثم إن حضارة البدو كلها تقوم عليه فهو يأكل أقسى حشائش الصحراء ويعطى لبناً وافراً يعتمد عليه البدو فى حياتهم ، أرأيت إذن لماذا قال الله : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف**

خلقت ﴾ ؟ ثم يلفت الحق سبحانه نظرنا إلى السماء وما تضمه من العجائب ، والسماء فى اللغة هى كل ما علاك وأظلك ، ولكنها فى خلق الله سماوات كثيرة ، وانظر إلى السماء فى سواد الليل وتعجب لهذه القبة العظيمة وما فيها من شموس ومجرات ومساحات سود يظن أنها مواضع شموس ماتت وانحلت وذهبت كواكبها وأقمارها وبقى مكانها خالياً ، وكل شمس من تلك التى تراها إنما هى مجموعة شمسية بكواكبها التى تدور على مثال مجموعتنا الشمسية هذه ، ومن يدرى فربما كان فى كل مجموعة شمسية أرض وفى كل أرض ناس مثلنا ، ومن يدرى فربما كان فى كل أرض إنسان مثلك .

ثم يلفت الله نظرنا إلى هذه الأرض التى سطحت وما هى فى الواقع مسطوحة ، ولكن هكذا تبدو لنا بجبالها وبحارها ووديانها وما يعيش فيها من إنسان وطائر ودابة وسمكة وحشرة ، والقرآن لا يلفت نظرنا إليها لنراها ، فها هى ذى ماثلة أمام أعيننا ، ولكنه يدعونا إلى التأمل فى عجائبها والنظر فى بديع صنعها والبحث عما يمكن أن يخرج لنا منها من الخيرات .

وفى سورة البقرة يرينا الله عجائب حركة الكون ، فى الآيات السابقة نرى روعتها وهى ساكنة ، وهنا نرى إبداع الكون المتحرك .

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأرضِ واختِلافِ الليلِ والنهارِ والْفُلكِ التِى تجرِى فِى البَحْرِ بِما ينفعُ الناسَ وَما أنزل الله من السَّمَاءِ من ماءٍ فأحيا بِهِ الأرضَ بَعْدَ موتِها وبَثَّ فِيها من كُلِ دابةٍ وتصريفِ الرِّياحِ والسَّحَابِ المسخرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَعْقلونَ ﴾ [البقرة ٢/ ١٦٤] .

فها هنا جانب أو جوانب من حركة هذا الكون الذى لا يسكن ، حركة يبعثها الله بأمره فهى متصلة منذ برأ الله الكون إلى أن يطوى الأرض وما عليها ، والحكمة الكبرى فى قوله تعالى : **﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾** . والمهم

هنا هو العقل والتفكير . منهما يخرج الإنسان بالمعلومات التى يديرها فى ذهنه ، ومن ذلك تتأتى المكتشفات والمخترعات ، لأن الإسلام دين العلم ، وأنت مهما تقرأ فى القرآن وتتدبر فيما تقرأ فأنت فى عالم علم وابتكار واختراع .

إن بعض أذكياء معاصرينا ينظرون فى القرآن ثم يقولون : هنا يذكر الله نظرية التطور ، هنا إشارة واضحة إلى كروية الأرض ، وهذا كله طيب ومشكور ولكنه كان يكون مشكوراً أكثر لو كنا نحن على هدى القرآن أصحاب هذه الكشوف لا مجرد متحدثين عنها .

***